الحارث بن مضاض

والحارث بن مضاض هذا هو آخـر ملوك جرهم المتوجين ولضياعه هكذا قصة يرويها كتاب التيجان على لسانه وارويها لك بقليل من الاختصار والتصرف ، يقول موجها حديثه لدليله الى مكة اياد بن نزار :

كنت ملك مكة وما والاها من الحجاز والتهائم الى هجـر والانعمين وحضر العالمين الى مدائن ثمود ، وكان الملك قبلى أخى عمرو بن مضاض ، وكنا اهل تيجان ، وكنا نعلق التاج يوما على رؤوسنا ويوما على الرتاج بالبيت العتيق .. وأتى رجل من بنى اسرائيل ، بدر وياقوت ، تاجرا الى مكة .. واشـترى أخى ما أتى به من الدر والياقوت .. ونقض أخى التاج وزاد فيه العقيان والدر والياقوت وجعله كالمجن .. وغيب الاسرائيلى أحسن ما كان معه من الدر الياقوت ثم عرضه على بعض الناس .. فأتى خبر ذلك الى الملك فأرسل الى الاسرائيلى وأتى بـه (وقال لـه) لم غيبت عنى عتيق ما معك وبعت لى نفايته ، الم ابلغك املك فى درك وياقوتك ؟ (قال) نعم أيها الملك .. (قال) فما حملك على ما فعلت ؟ (قال له) الاسرائيلى : هو مالى أيها الملك ، ابيع منه ما أحببت واحبس منه ما أحببت .. فغضب عليه

الملك وأمر به فنزع عنه ما معه من در وياقوت، وكان يسيرا .. ورصد الاسرائيلى الرجل الذى يحمل التاج الى البيت يوما ليعلقه على رتاج البيت العتيق ، فعمد اليه الاسرائيلى فقتله وأخذ التاج، وركب نجيبا وهرب .. وأصبح الناس فلم يدروا من ذهب بالتاج، واشتبه عليهم الأمر حتى أتى الخبر اليقين من بيت المقدس .. فأرسل الملك عمرو الى بنى اسرائيل يأمر ملكهم فاران بن يعقوب برد التاج ، ويأخذ منه كفاف حقه ويطل له الدم الذى أصاب ، واعتراف الملك بالزلة وندمه عليها .. فأبى عليه فاران ، فأرسل اليه عمرو أن التاج يعلق على البيت العتيق بمكة ، ولم نجعل فى ذلك التاج غصبا قط ولا غلولا .. فأرسل اليه فاران انه يعلقه على بيت المقدس ، فبعث اليه عمرو يقول ان الله هو الغنى ، فهل تسلب بيتا لبيت ؟ فقال فاران نحن أهل كتاب أعلم بالله منك. فأرسل اليه عمرو يقول ، أعلم الناس بالله من أطاعه ولم يعصه ، ولم أر بيتا يسلب بيتا ولكن ملكا يسلب ملكا .

قال الجرهمى : فخرجنا اليهم فى مائتى الف ، جرهم فى مائة الف ، وعملاق فى ستة الف ، ونصرنا الأحوض بن عمرو العبددوى فى خمسين الفا .. واستنصر فاران بن يعقوب بقومه من الروم . وكان صاحب أمر الروم شنيف بن هرقل ، فنصره فى مائة الف من الروم ، وخرج بنو اسرائيل فى مائة الف ، ونصرهم أهل الشام فى مائة الف .

قال الجرهمى : والتقى الجمعان عند هذا الجبل .. فنادى اخى عمرو على بنى اسرائيل وطلب منهم أن يبرز له ملكهم

فيتبارزا فأيهما قتل صاحبه كان له الأمر على ما يملك .. وبرز اليه شنيف بن هرقل فاختلفت بينهما طعنتان ، فطعنه عمرو فقتله .. ثم أرسل عمرو الى فاران أن أعطنى ما تعاهدت عليه مع شنيف ، فأرسل اليه فاران يقول أعطيكه بمكة من أموال أهلها اذا غلبت عليها.. فأرسل اليه عمرو يقول ما أشبه أول ظلمك بآخره ، وقد أوعدتك القتال غدا .

قال الجرهمى : وفى الغد نهض اليهم عمرو ، فتضاربنا طويلا فحطمناهم بالسيوف حطما ، ثم كانت لنا عليهم الدائرة فقتلناهم قتلا ذريعا ، وأدرك الملك عمرو ، فاران بن يعقوب على تل فقتله.. ثم مضى فى اثرهم الى بيت المقدس فأذعنوا له بالطاعة وأتوه بتاج الملك فأخذه . وكانت فيهم امرأة جميلة يقال لها برة بنت شمعون لم يكن مثلها فى وقتها من سبط يوسف بن يعقوب ، فأرسلوها اليه تكلمه فى أمر نزل بها وقد لبست حليها وحللها ، فلما رآها عمرو الملك فتن بها فتزوجها . وكان ذلك مكرا منهم له ، فلما خلا بها (قالت له) : الآن وقد رضيت فارضنى ، (قال لها) : لك رضاك . (قالت له) ارحل عن قومى ولا تضرهم فقد تشفعوا اليك بى . (قال لها) لك ذلك .. ثم رفع عنهم .. فسار حتى بلغ مكة ، وكان قد سار معه مائة رجل من أكابر بنى اسرائيل رهينة بالولد والعيال ، على السمع والطاعة من قومهم .. ثم نزل بموضع يقال له (أجياد) فعمدت برة بنت شمعون امرأته الى حسكة من حديد فسمتها ثم ألقتها فى فراشه عند منامه بالليل ،

واعدت نجبا ورجالا بردونها الى بيت المقدس .. فلما القى عمرو الملك نفسه فى فراشه،شجته الحسكة ودخله السمفمات، وهربت، وهرب معها المائة الرجل الرهائن .

قال الجرهمى : فأخذت فرسان جرهم وعملاق وبلغت تل فاران أنتظرهم. فلما أتوا اخذتهم، واخذتها ، ورجعتبهم وبها الى مكة .. فأصبت عمرو وقد تناثرت مفاصله من السم فحفرت له ضريحا وواريته ، ثم أمرت بالمائة الرجل فقدموا الى السيف ، ثم اخذت برة الى السيف فقالت : خدعت فى مجلس الملك ، ودخل اليه نقيب بنى اسرائيل ففعل ما رأيت ولا اعلم بذلك ، وكيف افعل ذلك وانا مثقلة منه .. فأمرت القوابل فأصابوا الحمل بينا، وكان عمرو قد منع الولد غير بنتين .. فلما عرفت انها تحمل منه ، غلبت على الشفقة ، فأدخلتها داخل القصر وجعلت عليها حرسا حتى وضعت حملها . فأتت بغلام سمته مضاضا على اسم أبى وجده . فشب فلم يكن فى وقته أجمل منه وجها . ودبرت أمرى فى قتل بره ، فقلت اقتلها لا آمن على نفسى ولدها ، ولكن اترك أمر امه فى أبيه اليـــه .

ومضاض الصــــغير هذا الذى قتلت امه أباه ، هو صاحب قصتنا التى حكيت لك .

قال الجرهمى : ثم وليت الملك بمكة وتوجت ، ورجعت الى بنى اسرائيل والروم واهل الشام فخرجت اليهم فى مائة الف من جرهم ومائة الف من عملاق ، فقاتلتهم فهزمتهم وكانوا زحفوا

الى تابوت داود الذى فيه السكينة والزبور .. فألقوه فأخذته جرهم وعملاق ودفنوه فى مزبلة من مزابل مدينة مكة فنهيتهم عن ذلك فعصونى ، ونهاهم عن ذلك هميسع بن نبت بن اسماعيل ابن ابراهيم صلى الله عليه وسلم فعصوه ، فعمدت الى التابوت ليلا فأخرجته وجعلت لهم مكانه تابوتا ودفعته الى هميسع .

ويمضى كتاب التيجان فى هذه الأسطورة الغريبة فيقول : وكان التابوت عند هميسع وكان عنده يتوارثونه وارث عن وارث الى زمان عيسى بن مريم عليه السلام ، فانه اخذه من كعب ابن لؤى بن غالب.. فلما هلكت جرم وعملاق غما ، وفنوا جميعا ولم يبق من عملاق الا عشرون رجلا فكانوا مؤمنين على دعوة اسماعيل مع هميسع ، وثمانية رجال من جرهم مع الحارث بن مضاض الجرهمى . فلما رأى الحارث قومه هلكوا ، ترك ابنه عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى عند الهميسع وخرج هاربا يجول فى الأرض هما وغما ووحشة لما نزل بقومه .. وتغرب الحارث بن مضاض ثلاث مئة عام .

* * *

حكاية الحارث الجرهمى التى حكيتها لها أهمية كبيرة فى تاريخ القصة العربية .. فالحادث الذى تغرب ثلاثمائة عام انما يرمز فى وضوح الى عجز الانسان وقصوره أمام قوة القدر الغائبة القاهرة ، بل لعله يرمز الى ذلك الضياع المخيف الذى يستشعره الانسان أمام سطوة القوى التى تحطم صراعه وتنهى

محاولاته للتغلب على طبيعته البشرية من أجل الكمال .. وهى فى ذات الوقت تعليل أسطورى لفناء جرهم وعملاق ، تعليل يبرز العقاب الذى لا يرحم ، العقاب الرهيب القاسى الذى لا يبقى الا يذر ، فهى لعنة أصابت هؤلاء القوم فأفنتهم . لعنة مجهولة المصدر اسمها الفناء ، وأمام هذه القوة المدمرة يخرج الحارث الملك الجرهمى الذى قاد معركة قومه الظافرة ضد بنى اسرائيل، والذى حمى بسيفه وسيف أخيه وسيوف قومه كرامة الكعبة وهيبتها ، يخرج الحارث مهزوما عاجزا بلا أمل ، يدور فى الجزيرة العربية يحمل فى قلبه المرارة والهزيمة واليأس ، ينتظر نهايته التى تتأخر مائتين من الأعوام ، تظل فيها روحه تحمل آلام أمة وعذاب شعب ، وترمز الى اللعنة التى تصم قومه .. وحين يريد القدر أن يريحه من هذا العذاب المقيم يقصد الى مكة حيث يدخل قبره بقدميه لينام أخيرا فى راحة ، وقد أدى فرض العقاب المجهول خير أداء ..

وقصة الضياع هذه نرى صورا منها فى الآداب العالمية كقصة اليهودى التائه وقصة الهولاندى الطائر وغيرها ، بل اننا لنرى منها صورا فى الرواية العربية نفسها .. وهى فى الرواية العربية تأتى بأكثر من دلالة .. فسليمان النبى الذى دان له الانس والجن والطير والوحش تخرج له الخيل الخضر من البحر فتعجبه ويفتن بها ويظل يتأملها ويربت على أعناقها وسوقها حتى تنسيه التسبيح والتهليل ، فلما ذكر الصلاة والتسبيح أمر بالخيل الخضر فعقرت ، ثم سارت به الريح حتى بلغ تدمر ، وكان لخاتمه

نور يقوم بين السماء والأرض فيزدحم عليه الطير فى الهواء على راس سليمان . ثم ان خاتم سليمان سقط من يده فذهبت الطير وسكنت الريح ، لما أراد الله ان يرى سليمان ومن معه من المؤمنين أن الدنيا وما فيها الى زوال ، ثم سلب الله سليمان ملكه ليبتليه ، فلما سلب ملكه علم انه لما نسى من ذكر الله ، فخرج هاربا يجول فى الفيافى ويتضرع الى الله ..

فقصة سليمان هنا تدور حول الضياع أيضا ولكنها تحمل فى طياتها دلالة الابتلاء ، فهى تشير الى قدرة الله التى ليست فوقها قدرة ، وعظمته التى لا تعلوها عظمة ، فسليمان رغم كل ما سخر له من مخلوقات الدنيا لا يستطيع لنفسه نفعا ولا ضرا .. والقصة التى نقلتها لك من كتاب التيجان تشير الى أن شيطانا ساحرا قد احتل مكان سليمان وخدع وزيره وأهل بيته، وظل يحكم مكانه الى أن رد الله الى سليمان ملكه، فقتل الشيطان الساحر وعاد الى مكانه .. فهى اذن تجسيد قصصى لقدرة الله على المنح والعطاء ، ثم على الأخذ والحرمان ، ثم على اعادة ما أخذ وقتما يشاء .. وهى ابتلاء للاختبار ، اختبار قوة ايمان سليمان ، واختبار أثر هذه النعمة الكبرى التى منحه الله اياها ، وهل أنسته ايمانه وألهته عن عبادة ربه . ؟ ولكنها ما تزال رغم هذا كله ، ورغم المضمون الدينى الذى تحمله ، ما تزال ترمز الى مأساة الانسان العاجز القاصر أمام قوى أكبر منه وأكثر خطورة . .

الا مأساة سليمان لا تكتمل ، فسرعان ما تعيد اليه القدرة ما سلبت . فهى اذن محنة مؤقتة ، وهى بالتالى لا تحمل ما فى قصةالحارث الجرهمى منمعنى الضياع والعجز الكامل، الا بمقدار ما تثبت قضية معينة . أما فى قصة الحارث فليست هناك مثل هذه القضية التى تحتاج الى اثبات ، انما هى فى حد ذاتها قضية كاملة .. قضية الانسان أمام القدر ..

وشبيه بقصة الحارث هذه قصة قيس بن زهير ، أو قيس الرأى فى رواية عنترة بن شداد التى تأتى بعد هذه القصة بأكثر من قرن .. اذ نرى قيسا وقد أحاط العرب به ، وبقبيلته من بنى عبس،تريد العربأنتأخذ بثاراتها منبنىعبس على مافعل بهمعنترة قبل موته . وقيس وقبيلته يذودون عن أنفسهم الى أن يفنوا . فيهرب قيس ومعه نفر قليل كل الى جهة ، أما قيس فيظل تائها فى الجزيرة أعواما طوالا ؛ الى أن يعود لبنى عبس عزهم بقوة أولاد عنترة . وحينيحاول قيسالعودة الىقبيلته يموت مجهولا فى الصحراء على أيدى بعض قبائل العرب .. فهى اذن قصة تحمل فى طياتها أيضا معنى الضياع ، ولكنه ليس ضياعا أمام سطوة قوة مجهولة غير ملموسة ، وانما هو ضياع ولدته الهزيمة أمام قوى بشرية معروفة . وتم بعد معركة طاحنة أبلى فيها قيس بن زهير ما وسعه الصمود ، ثم هرب بحياته ليظل هاربا حذر الموت، وحذر الثارات التى تتعقبه . فهى اذن ليست لعنة مجهولة المصدر ، مجهولة السلاح ، ولكنها لعنة معروفة الأسباب،واضحة فى سلاحها ونتائجها ، ولو أنها آخر الأمر تتشابه فى دلالتها مع

قصة الحارث الجرهمى من حيث تصوير الضياع اليائس العاجز .. ونستطيع أن نرد ما بينهما فى فروق الى اختلاف عصر وجود كل قصة منها .. فقصة عنترة كما نعرف من القصص العربى المتأخر زمنا ، والذى كتب بعد أن ضرب العرب فى الحياة من حولهم بأكثر من سهم .. فكان من الطبيعى أن يبحث القاص عن العلل ، وأن يجسد الأسباب ، وأن يمنطق الأحداث ويقربها الى الالف والواقع ما أمكنه..أما قصة الحارث فهى قديمة قدم ما عرف العرب فى صدر الاسلام من أساطير ، فسلا عجب أن انبعثت فيها القوى الغيبية بلا تجسيد ولا تبرير ..

وقصة الضياع فى حياة العربى ليست ظاهرة غريبة ولا شاذة ، فحياة العربى القاسية أمام قوى الطبيعة المجهولة كفيلة بأن تجسد له ضعفه وتفاهته وحقارة قوته ، أمام جبروت هذه القوى التى لا تقاوم .. والعربى الوحيد وسط رمال الصحراء يتلمس طريقه بما يعرف من معالم قد تشوهها يد الأحداث ، فيفقد طريقه ليغدو شيئا صغيرا وسط الخضم الزاخر حوله من قوى الطبيعة ، لا شك أقدر الناس على الاحساس بهذا المعنى من غيره .. بل ان العربى الآمن حول نبع ماء يشرب منه ويسقى غنماته فى صراع مرليحيا وتحيا غنماته ، سرعان ما تفجأه قوى الطبيعة باختفاء هذا الماء وانتهائه ، ويشد رحله فى يأس بحثا عن ماء جديد ليستقر حوله من جديد .. وما أحسب الا أن رحلته الدائمة هذه بحثا عن الكلأ والمرعى نوع من الضياع فى جوف الصحراء الضخم الذى يبتلعه ويبتلع معه ما له من آمال وأمانى ..

وتقلبات القدر فى حياة العربى كثيرة ومتعددة .. فهو معرض للغزو يحيل الأحرار من أهله عبيدا ،والمحصنات من نسائه اماء .. ثم هو معرض للجفاف يحيل غناه فقرا ، وراحته وأمنه قلقا واضطرابا .. وهو معرض للحيوان المفترس فى كل خطوة يخطوها ، بل هو معرض للطبيعة المفترسة فى كل خطوة ايضا .. واختفاء المدن والحضارات ، واختفاء القبائل وانقراضها شىء كثير الورود فى أساطير العرب ، فقد باد عادوثمود ، وباد طسم وجديس ، وبادتارم ذات العماد .. وبادت أمم تلتهم كجرهم وعملاق .. والأسباب كلها مجهولة ، يقولها العربى فى كلمتين ، عاديات الزمن ..

فالزمن أو القدر قوة مخيفة تلاحق العربى فى كل حياته ، وهو دائما فى صراع ضدها .. تارة يترضاها بعبادة مظاهرها وتقديم القرابين لها ، وتارة يخضع لها تماما ويلجأ الى سؤالها واستشارتها فى حياته ، يحاول أن يتلمس مصيره من خلال أى مظهر من مظاهرها . فعرفت عنه الطيرة ، والتشاؤم والتفاؤل ، والضرب بالقداح .

وكان من الطبيعى أن يأخذ موقف العربى من هذه القوى مظهر الاستسلام دائما ، فهو أبدا لا يجد من سطوتها فكاكا ، ولا يستطيع حتى فى أحلامه وأساطيره أن يتمرد عليها اى لون من الوان التمرد . انما هو يستطيع فى أحلامه وأساطيره ان يجسد من هذه القوى الغيبية قوى أخرى خيرة تساعده فى التغلب على

القوى التى تهدم حيانه ، فظهر الجن المؤمن والجن الكافر .. كما يستطيع فى احلامه واساطيره أن يزعم لنفسه نوعا من القدرة على توجيه هذه القوى نوعا من التوجيه بقوى غيبية اخرى مجهولة ، فظهرت فى اساطيره حكايات السحر والسحرة ، والحكمة والحكماء ، والطلاسم والارصاد .. ثم ماذا بعد هذا كله . ؟ لا شىء .. مازال يدور فى دائرة لا فكاك منها ، اسم هذه الدائرة الاستسلام الصاغر بلا جدوى مهما حاول أو تمرد..

من هنا كان من الطبيعى أن تحتل قصة الضياع أمام القوى الخارقة وارادتها ، وخضوعه لها ، مكانا هاما فى الأساطير العربية . ولعل أكثر هذه الأساطير تجسيدا لهذه الفكرة وابانة عنها هى أسطورة الحارث الجرهمى التائه فى الجزيرة هذه الفترة الطويلة من الأعوام .. فان ضياع الحارث مرتبط ارتباطا كبيرا بضياع جرهم كلها .. والتعليل الأسطورى يكاد يحاول تفسير سر اختفاء جرهم وعملاق محاولا أن يتهمهم هم ، لا القدر . ثم محاولا أن يتلمس أسبابا غير ظاهرة لمشكلة يلمحها هو ظاهرة أمام عينيه . وكانت هذه الأسباب فى تعليله الأسطورى هى الخطيئة التى أحلت عليهم اللعنة .. فحين يتحارب مضاض الجرهمى مع بنى اسرائيل بسبب التاج الذى سرقه اسرائيلى من الكعبة ثم نقله الى بيت المقدس ، يحمل الاسرائيليون امامهم تابوتا به صحف (الزبور) .. وكانوا قد تعودوا أن يحملوا هذا التابوت أمامهم فى كل معركة ، فتحمله الملائكة وتهزم أعداءهم .. الا انهم فى هذه المرة كانوا قد عصوا ربهم ونسوا كتابهم ،

وادخلوا على صحفهم ما شاءوا من كلام ، فلما حملوا تابوتهم امامهم لم يغنهم فتيلا ، فانهزموا أمام جرهم التى ادارت فيهم السيف .. واستولى الحارث الجرهمى على التابوت ، الا أن جرهم فى نشوة نصرهم يلقون بالتابوت فى مزبلة بمكة .. وتحل اللعنة ، ويحاول الحارث أن يقنع قومه أن يرفعوا التابوت ، ولكنهم يصرون ، ويتقدم الحارث ذات ليل الى مكان التابوت ، فيرفعه فى خفية ويضع مكانه تابوتا مزيفا .. ولكن اللعنة كانت قد حلت وانتهى الأمر .. وبدأت ابادة جرهم فلم يبق منهم الا القليل ، أما الحارث نفسه فيخرج هاربا الى صحراء الجزيرة ليتوه بين رمالها .. فكأن المسألة هى محاولة ايجاد مبرر لما حل بجرهم ، وهو تبرير يلقى الضوء على عجز حقيقى أمام لعنة القدر .. فرغم محاولات الحارث لابعاد التابوت فما زالت اللعنة قائمة ، ورغم أن بنى اسرائيل أنفسهم لم يحدث لهم سوى الهزيمة فى معركة كانوا هم السبب فى قيامها ، بل كانوا يستحقون بالفعل الهزيمة والعقاب لما حاولوا من التعدى على الكعبة وسرقة التاج الذى يعلق فى رتاجها .. رغم كل هذا فاللعنة قائمة ولا شىء يبرر زوالها . وينطلق الانسان العاجز بلا أهل ولا ولد ، بلا ماض باق ولا مستقبل مأمول ، ينطلق يجول ويجول ، عملاقا طويلا ضخما ضريرا ، ينتقل من مكان الى مكان يحكى حكايات جرهم ، وقصة عجزها أمام القدر ، فيحكى حكاية (مضاض ومى) التى نقلتها اليك منذ حين ترسم بنهايتها اليائسة خطه النفسى الذى يعيش فى حدوده ، اليأس المر .. والاحساس المطلق بالعجز والضياع ..

ولست أحب أن أترك قصة الحارث دون أن أشير الى ما جاء فيها عن أخيه عمرو بن مضاض وزوجته الاسرائيلية ، وكيف قتلته مسموما بعد أن دسها قومها عليه ، وما فى هذه القصة من شبه بمولد سيف بن ذى يزن فى الرواية الطويلة التى ظهرت بعد ذلك بقرون .. كما أود أن أشير الى ما بين غربة الحارث بن مضاض وبين غربة قيس بن زهير فى قصة عنترة بن شداد .. لعل الباحثين يجدون فى هذه القصة مصدرا لكثير مما جاء فى القصص المتأخرة من اشارات لها دلالتها الأسطورية .

وهذه القصة المتداخلة المتشابكة انما تعطينا صورة واضحة عن فهم العرب للقصة وما يجب أن تحمل من مدلول ، وهى الى جوار هذا تفسر لنا حسهم الدرامى الناضج وتبلور موقفهم من الحياة والقدر .. الا أن هذه القصة تأخذ مكانها فى الجزء الشمالى من الجزيرة ، كما تتناول أبطالها من أهل الشمال سكان مكة وما جاورها . وهؤلاء كما تعلم ليس لهم تاريخ موغل فى القدم يمدهم بالكثير من المنابع الأسطورية ،وأحب أن أنتقل معك الى الجنوب، الى اليمن ، حيث عاشت حضارة زاهرة اكسبت أهلها من التجارب ومن الخبرات ما يسرت لهم تاريخا كبيرا ضخما لعبت فيه الحكاية ما شاء لها خيال كاتبيها فى انطلاق ويسر .. فالمادة متوافرة والأحداث كثيرة ، وأنا أريد فى هذه الجولة أيضا أن نكشف معا السمات العامة التى اختارها أصحاب هذه المرحلة التى نتحدث عنها ، أعنى مرحلة التجميع ..

* * *